اللغة العربية

انقضت مدة وأنا بين الكتب والمحابر أفتش عن موضوع أقدمه لقراء « الاخاء » تكون من وراثه لذة لروحي ، وفائدة لكل ناطق بالضاد . فوجدت . بستان المواضيع المتسع الأرجاء ، فدهشت مما رأيت فيه من أنهار مفروشة شواطئها بالأزهار ، واشجار موقرة بثمار مختلفة الأشكال والاسماء . ما زال بصري محدقاً بتلك الأثمار المتألقة كالأقمار ، حتى وقع استحساني على ثمرة ناضجة شهية فقطفتها وعنونت بها هذا المقال

* * *

لغة كل امة عنوان مجدها ومقياس فضلها وأدبها ، ودليل رقيها وانحطاطها ولنأت الآن بفذلكة تاريخية عن اللغة العربية فنقول : هي احدى اللغات السامية ورئيسة اخواتها الحبشية والعبرانية والسريانية ، واعرق لغات العالم قدماً واغناها واكرمها واشرفها . كانت قبل الاسلام محصورة في جزيرة العرب وما يليها من مشارف الشام والعراق الى تدمر وفي بادية الجزيرة (بين النهرين) وفي جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية . وبعد انقسام المملكة الاسلامية وقيام بغداد أي منذ تبوء الخلفاء بني العباس تخت السلطنة العربية ، انتشرت العربية في الأرض الى ان امتدت من الشرق الى الغرب بين اواسط الهند وشواطىء الاتلنتيك ومن الشمال الى الجنوب بين البحر الأسود وبحر العرب . وكان لهذا الانتشار تقدم ونجاح للغة العربية في ذلك العصر غير انه بعد موت الرشيد وابنه المأمون انقطعت رغبة ملوك العرب واكابرهم عن العلم ، فتلاشت اسباب السعي في تحصيله ، وفقد كثير من المصنفات النفيسة ، واستولى الجهل على الناس ، ولم يلتفتوا الى ما ينهض بلغتهم . ولما رأت العلوم العربية كساد بضاعتها وعدم رواج سوقها ، اتشحت بوشاح الحداد ، وسارت كاسفة البال قاصدة بلاد اوربا عن طريق المغرب واسبانيا ، لتستظل هناك باجنحة الأجانب . واذ كان الافرنج قد زاروا البلاد

الشرقية في اوائل الجيل الرابع عشر ، وشاهدوا حضارتها ورقيها ، فتحوا لها قلوبهم قبل ابوابهم ، ففعل كرلوس الكبير ملك فرنسا بها كما فعل المأمون بالعلوم اليونانية ، فأمر بترجمة الكتب العربية القيمة الى اللاتينية محافظاً على نسخها الاصلية ، وهكذا بدأ نور العلم يضيء في الغرب بينما كان ظلام الجهل سائداً في الشرق

ظلت العربية حليفة التأخر والانحطاط ، وقد تقلبت عليها طوارىء مختلفة باختلاف الاحوال السياسية والاجتماعية ، حتى جمل بونابرت على مصر في اواخر القرن الثامن عشر حملته المعروفة . فأقام فيها مع جنده ثلاث سنوات ، وكانت تصحبه طائفة من العلماء والصناع ، فاسسوا المعاهد العلمية ، ونشروا اسباب المدنية الغربية ، وأنشأوا في القاهرة مدرستين لتعليم ابناء الافرنسيين المولودين بمصر وجريدتين فرنسويتين ومسرحاً للتمثيل ومجمعاً علمياً . وقد قامت إثر ذلك نهضة تذكر في مصر امتدت أطرافها الى الشام وجزيرة العرب والعراق والمغرب والسودان

لكن كل ما أدخله نابليون في مصر من علوم وآداب ذهب بذهاب الافرنسيين منها سنة ١٨٠١ فانتابت مصر بعد ذلك طوارىء مختلفة انتهت بجلوس محمد علي على عرش حكومتها سنة ١٨٠٥ ، فأخذ باقتباس وسائل المدنية الجديدة ، لتنظيم الجند ، وتخريج الاطباء ، ورجال الادارة والصناعة والكتابة ونشر العلم والادب بانشاء المدارس المختلفة ، واحياء الآداب العربية بنشر الكتب او ترجمتها او تأليفها وبعث الارساليات الى اوربا . وخلفه بعد موته محمد اسماعيل فأخذ في إتمام ما كان جده قد شرع فيه من اسباب هذه المدنية ، فكثرت في ايامه المدارس والمطابع والجرائد وغيرها ، وتكاثر وفود الاجانب في عهده أما سوريا فقد بدأت نهضتها اللغوية العلمية الادبية في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وهذه اسبابها كما ذكرها المرحوم زيدان في كتابه « آداب اللغة العربية » (١) افتتاح ابواب التجارة وتقاطر الاجانب الى بيروت (٢) انتشار مطبوعات بولاق والاستانة

ومطبوعات الآداب الشرقية في اوربا (٣) نبوغ طائفة من رجال الدولة العثمانية بالعلم والادب واكثرهم تثقفوا في اوربا واحرزوا المناصب الرفيعة فكانوا يشدون ازر المشاريع الادبية (٤) انشاء المدارس على الطراز الجديد . هذه خطوات كبيرة خطتها اللغة العربية واهلها الى الامام ، وسببها تأثيرات مدنية اوربا . ولولاها لكانت العربية رهينة التبدد والاندثار

اخذت العربية منذ ذاك العهد بالتقدم والانتشار حتى هذا اليوم ، وهي تنمو الآن نمواً حسناً بما يدخل فيها من ثمار قرائح ابنائها على ما يقتضيه ناموس النشوء من التوسع والتفرع

ومن الواجب ان نذكر ان لاخواننا السوريين في المهجر فضلاً عظيماً على اللغة العربية ، فقد افادوها بمعانيهم المبتكرة الجديدة ، وكتاباتهم الحرة الطليقة ، ضاربين بكل رث قديم عرض الحائط وقد قال الشاعر حليم دموس في هذا المعنى

في ربوع الغرب منا اخوة راموا علاها
حيها رغم التنائي في حناياهم تناهى
عززوها قد نجلت لغة يسبي بهاها
بمعان رائعات رجّع الكون صداها

ولا ريب ان التقدم الذي حصل في اواسط القرن التاسع عشر يقوي عزيمة من له رغبة وغيرة على إنهاض لغته وامته وان اتعاب الذين صرفوا ويصرفون السنين الطوال في إحياء العربية وادخال آدابها بين ابناء العرب ستكلل باذن الله بالنجاح ؟

(القدس) قسطنطين جورج ثيودري